

## التراث الأدبي بين محوري: التشكيل و القراءة

د/ حبيبة مسعودي

جامعة جيجل

## مقدمة:

المتأمل في الفعل القرائي للتراث الأدبي في الدراسات الحديثة يلحظ بأنه يعد مشروعاً مفتوحاً يتم تأسيسه وفق مراحل معينة؛ كون هذا الفعل يتكئ على محور تشكيلي قرائي إنتاجي، وبخاصة إذا تم التسليم بأن الفعل القرائي لهذا التراث هو فعل متجدد يولد من القراءة وينمو ويتطور معها؛ فالتراث الأدبي لا يمثل نسقاً مغلقاً على ذاته ولا يحمل أفقاً دلالياً ضيقاً، بل هو كيان لغوي دلالي مفتوح، قابل للتحويل الذي تصنعه الرؤية العصرية وكذا العملية القرائية، وهذا من منطلق أن العملية الإبداعية ذاتها لعبة تمارس مع اللغة، فتكون القراءة بدورها لعبة ثانية تمارس مع ذلك التراث قصد إحيائه وفق ما يتولد معه من مناهج مستحدثة ومفاهيم نقدية وتحليلية جديدة تكون في رأينا مستجيبة للسياقات المتباينة التي تتحرك فيها العملية القرائية التي تجعل من الثابت في ذاك التراث متحولاً والمستحيل فيه ممكناً، وهذا عن طريق الفعل الاستنطائي لها- للعملية- وكذا إعادة الصياغة وفق الرؤى المستحدثة التي لا تقتضي الانفصال أو الانسلاخ عن التراث ( الذات ) ، ولا الذوبان أو الانصهار في الآخر(الغرب)، ولا بناء الحواجز مع العصر؛ بل تدعو إلى ضرورة المزاوجة بين الرؤى التالية: الرؤية التراثية/ التقليدية (الماضي)، و الرؤية العصرية (الحاضر) ، والرؤية التطلعية (المستقبل) .

## ومن هذا المنطلق نتساءل:

- ✓ ما المقصود بمصطلحي التراث و القراءة ؟
- ✓ كيف نقرأ هذا التراث ؟ ولمن نقرأه؟
- ✓ ألا يمكن للذات البشرية أن تنطلق من ذاتيتها قصد تأصيل الممارسة القرائية للتراث، وتأكيد الاستقلالية الفكرية وكذا هوية الحضور العربي؟
- ✓ ثم هل للعملية القرائية أن تتم من خارج الكيان التراثي أم من داخله؟

✓ وهل يمكن رسم ملامح الفعل القرآني تكون ذات خصوصية حضارية عربية معاصرة

متحررة من المركزية الغربية أم لا؟

لعل المتصفح لتراثنا يتراءى له منذ الوهلة الأولى أنه يضم العديد من القضايا المتشابكة التي تحتاج إلى وجود ذات قارئة تميز بين الثابت و المتحول، معتمدة في ذلك على ملكة العقل مستكشفة المؤشرات المعرفية التي خلفها الأسلاف، وربما هذه المؤشرات بدورها في حاجة ماسة إلى أنا قارئة تعمل على إبراز الأنظمة الاستدلالية التي يشتمل عليها التراث.

وحتى يستقيم عود هذه الدراسة يتوجب علينا تحديد مفهوم مصطلح التراث

### أولا - في مفهوم التراث :

من الواضح أن مصطلح التراث لا ينفصل عن المسار التواصلي للحركة الاستمرارية الراضية دوما في الاستقرار، فهو لا يتوقف عند ما أبدعه الأسلاف من معارف ومعطيات موقفية في شتى الحقول المعرفية، كما أن تلك الذات العربية لم تقل الكلمة النهائية فيما أبدعته من إنتاج ذهني. وفي ظل هذا المنحى نشير إلى أن التراث لا يمكن التعامل معه على أنه يجسد >>كيانا معزولا قائما بذاته، ومكتفيا بها، ومنغلقا عليها، ولا نرى أنه يمثل الصورة المثلى التي يحق لنا أن نتباكى لافتقادها، أو التي يتحتم علينا أن نسعى إلى استعادتها على ما كانت عليه؛ ولكننا ننطلق في هذا الاهتمام من تصور آخر، نرى فيه هذا التراث جزءا من بنية حضارية أشمل تضم الماضي البعيد، والماضي القريب، والحاضر والمستقبل جميعا <<(1).

ومن هذا المنطلق نذهب إلى أن التراث -وفق هذا التحديد المفهوماتي- غير منتهى وإنما هو خاضع لعملية التشكيل وإعادة التشكيل، فهو ينطوي على خصائص معينة تجعله كلا موحد تدفع التعامل معه ينتهج العملية التفاعلية التي تهيئ له الفضاء الدينامي الذي يرسم معالم الرؤية المعرفية الإبداعية، ويحدد مجالات الحركة الحوارية التوليدية وذلك وفق مستويات متجاوبة ومتداخلة، تمثل القطب الهام في قراءة ذاك الزخم المعرفي المشتمل على بعض الثوابت والمتغيرات المتكئة على قيم معينة تكون مسلكا ضروريا لتجسيد الحدث الاتصالي بفعل التفاعل في حد ذاته، وبخاصة إذا تم الإقرار بأن التراث يمثل - في أحد جوانبه - >>قيمة مطلقة يرتكز عليها العقل لتمكين القيم الفكرية من الثبات وإسهامها في إنحاض الأمة <<(2)

وفي ضوء ما ورد في هذا النص يتوجب على الذات المبدعة أن تكون على درجة عالية من الوعي بمتغيرات القيم المطلقة التي تستلهم التراث، فيكون لزاما على الملكة الذهنية أن تبحث في كيان تلك القيم لتستخرج ما هو فعال لأجل النهوض بالأمة؛ كون >> الحركة الأولى لنهضة أي أمة من الأمم هي أن يلتفت الناهضون إلى عصور الازدهار والمجد في تاريخهم ليحجّلوا من تراثها مثلهم في بناء نموذجهم الحديث، وعلى هذا فإن إحياء القديم هو القاعدة الأساسية التي تقوم عليها هذه النهضة أو تلك، وعلى هذا أيضا فإن الإحياء (...) ليس بعثا لميت؛ وإنما هو عود إلى عصور الصحة والنظارة لاتخاذها مثلا عليا تحتذا وتستلهم >> (3).

ومن الملاحظ أن دراسة التراث وإحيائه تتطلب التحاور مع الإشارات البعيدة في كيانه، قصد استكشاف المعنى غير المنتهي وبسطه، وجعله معنا مكشوفًا ليزيد الأول وضوحًا، دون التلاعب بالمسلمات المعرفية عند المنجز لعمليتي التحاور والاستكشاف، ومن ثم تتم عملية قراءة وصياغة الدلالة المستكشفة، مع إخراجها في نمط تشكيلي حدائلي لا يكتفي صاحبه (القارئ) بالإدراك السطحي للمعطيات الموقفية؛ وإنما تتحرك العملية الذهنية عنده فتقوم بممارسة إبداعية فكرية غير منفصلة عن الخلفيات المعرفية وكذا الإجراءات المنهجية المعينة له على تقديم الرؤية القرائية التأويلية لذلك الكيان التراثي الذي يقتضي المزاجية بين الماضي والحاضر لكي >> تجتمع ثقافتنا المورثة مع ثقافة العصر الذي نحياه >> (4).

من المفيد إذن التنبيه على أن التراث له حضور كلي في إرث أي أمة فهو يمثل -في اعتقادنا- الوجود الفعلي لحلقات السلسلة الاتصالية والتواصلية بين الأزمنة التالية :

➤ الماضي (من حيث هو الأصل والتركيب الأول/ مخزون متشعب التوجهات).

➤ والحاضر (من حيث هو المصور الآني للنشاط الفكري والإبداعي وكذا التصورات المعرفية والفنية/ ماضي دينامي).

➤ والمستقبل (من حيث هو تطلع لكل ما هو حدائلي/ استشراف لما سيكون).

ومن خلال هذا المنظور يبرز لنا بأن التراث هو >> مجموعة التفسير التي يعطيها كل جيل بناء على متطلباته الخاصة >> (5)؛ وكأننا بالمتفاعل معه يعكس لغيره ماورائية ذلك التراث، إنه في نظرنا يقع في إطار عدسة الرؤية الاستنطاقية لما هو موجود، وذلك بغية الإسهام بوعي

وتصميم في إنتاج المسند المقروء، عن طريق تجسيد التفاعل بين الآليات القرائية والموجهات الأدائية

والجدير بالذكر أن كلا من الصبغة السوسولوجية التكوينية التركيبية للمعطيات الموقفية و التمثيل اللغوي لها لا ينفصلان عن ثنائية الإنتاج والتقليد الماثلة بينهما لاستخراج معطيات تلك الصبغة وذاك التمثيل مع ضرورة التأكد من نمطية تأديتها للوظيفة المنوطة بها ذات الأبعاد المنهجية والمعرفية التي يحتضنها الهيكل التراثي، ولا يظهر هذا - في رأينا - دون أن >> تقتل التراث معرفة، كما كان يقول بعض علمائنا، وهذا القتل الذي يشبه في بعض جوانبه قتل الأب هو الوسيلة الأولى للتحرر من سيطرته، وإفساد المجال للنمو الطبيعي، وهو يقع في المنطقة الإيجابية بين موقعين سلبين، أحدهما هو التبعية المطلقة له والآخر هو الثورة القاطعة عليه، وكلاهما طريق مسدود >> (6).

وفي ضوء هذا السياق يحرو بنا أن نشير إلى أن التراث يتضمن العديد من المؤشرات المعرفية التي تستوجب وجود ذات قارئة تكون على مقدرة فائقة على انتهاج مسلك استنطاقي توضيحي يكشف الحجاب عن اهتمامات الأسلاف في الماضي، وعن كيفية بنائهم لمجدهم الحضاري الذي بلغ أوجه في الأزمان الغابرة، وهو في زمننا الراهن يدعو إلى حتمية امتلاك زمام عقلية عصرية تفسر تلك الظواهر الفكرية وتستخرج ما فيها من تطور معرفي .

والحالة هذه تجعلنا نذهب إلى تحديد الموقف من التراث الذي >> ليس موقفا من الماضي وإنما هو موقف من الحاضر فبحسب موقف من الحاضر يكون موقف من الماضي، وليس العكس ، كما يقال أو كما يظن، إن الماضي هو سندي وسلاحه لمشروعية حاضري وبحسب معرفي بحاضري وموقف من حاضري تكون معرفي وموقف من الماضي >> (7).

ومن هذا التوجه الفكري نقول: إن التراث له وجود فعال في البناء الحضاري يعكس الماكان ويعين على بناء الكيان الآني كما يوضح معالم الاستشراف المستقبلي، وذلك وفق منظور منهجي متجدد يحمل رؤى نقدية معاصرة، ولا سيما إذا تم التسليم بأن التراث >> لا يوجد في ذاته وإنما هو قراءتنا له، وموقفنا منه وتوظيفنا له >> (8).

ومن منظور هذه الدلالة نلاحظ بأن المرء لا يمكنه تجاهل تراثه بكل جوانبه المتنوعة: الأدبي منه واللغوي والثقافي والتاريخي... وما إلى ذلك، فهو يقترب برغبة دنيئة وعلمية في الوقت ذاته

تشكل دافعية القراءة وتستبصر كيفية التوظيف له، لإنتاج معرفة جديدة بالتراث المقروء بواسطة أدوات المعرفة المتاحة في عصر القارئ، كون التراث لا يستكشف ذاته بذاته ولا بأدواته الشخصية وإنما القارئ هو المنجز لهذه العملية القرائية الاستكشافية، ولكي تتضح هذه العملية يتحتم علينا تحديد مفهوم مصطلح العملية القرائية، للتعرف على كيفية تطبيقها في قراءة تراثنا الأدبي .

### ثانيا- في مفهوم العملية القرائية :

من المتفق عليه أن النص يعد بنية تركيبية حاملة لمعطيات معرفية تقتضي فك شفراتها والتصريح بدلالاتها الدفينة والمتوارية خلف العلاقات الداخلية التي لا يمكن أن تحيل المتعامل معها إلى دلالة واحدة؛ لأنها تتضمن علامات تستمد تعددها من تلك الإيجاءات التي تعبر عنها، وتجعل من بنائها الدلالي كيانا معرفيا قابلا للتفكيك، ومفتوحا على جميع الدلالات الممكنة ويتم ذلك وفق إتباع إستراتيجية نصية ذات وقع رمزي يتجاوز حدود المصريح به إلى وضع خطاطة معرفية تخص الدلالة غير المصريح بها؛ فالنص إذن ما هو إلا >>رحم تنمو فيه المعاني وتتناسل المؤثرات والتقبل يُؤلّد بحسب طاقته القرائية ظلالات من المعنى الممكن<<<sup>(9)</sup> فإن القراءة عملية ذهنية يتجسد في ضوئها التفاعل بين المنجز الذهني(Le texte/النص) والمستنتق له (القارئ/Le lecteur) في علاقة تكاملية؛ كون >> القراءة لا تتم إلا مع الكتابة، إنها فعل مستحدث يستحدثه النص المكتوب، وكأن النص نداء، وعلى القراءة أن تلي هذا النداء<<<sup>(10)</sup>؛ فكل واحدة منهما تستدعي حضور الأخرى، إذ لا يمكن الفصل بينهما، فإذا كانت الكتابة تمثل الرسم الحرفي للألفاظ والإدلاء ببعض معانيها وفق قواعد متواضع عليها تضبط الفعل التركيبي لها، فإن القراءة هي تفكيك المنظومة التشكيلية لتلك الألفاظ، ومحاولة تقديم منظومة مقروئية مستحدثة، ومن هنا تتحرر الكتابة من القيود التي تنتخب لها معاني معينة لتتجاوزها إلى معاني أخرى تكون وليدة الحدث التفكيكي للرموز اللغوية؛ فالقراءة إذن >>تفتح للقارئ إمكانية المشاركة في فعل الخلق، باستعارة قدرة الكاتب على إتيان فعل الخلق والتكوين، والدخول في الأقاليم البعيدة الموحشة والتوغل في اللامتكشف المجهول<<<sup>(11)</sup> .

وفي هذا السياق يظهر لنا بأن العملية القرائية من حيث هي لا تنفصل عن أفق معرفي محدد، ووجود ثقافي تاريخي تعبر عنه الدوال والمدلولات المشكلة لبنية المنجز الذهني الذي يحمل جملة من المؤشرات التي تعد بمثابة مفاتيح تعين القارئ على فتح مغالقه- مغالقه النص-، كما

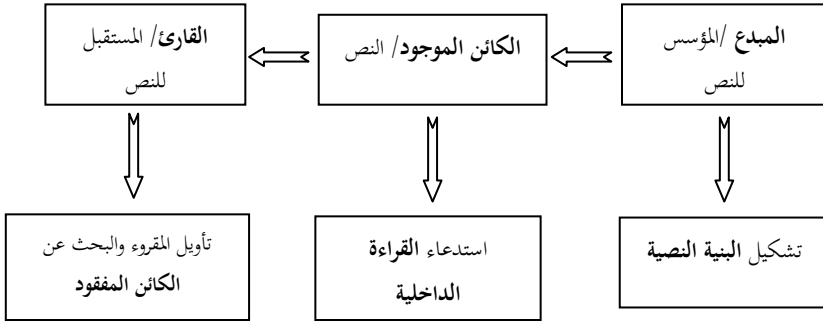
تصور علاقة المتفاعل معه بالنصوص الغائبة والمعاني الحالية التي يمكن الوصول إليها بواسطة طرح الأسئلة والبحث عن الأجوبة، وبخاصة إذا تم الإقرار بأن القراءة ليست وليدة العدم وإنما هي >> تبدأ من طرح أسئلة تبحث لها عن إجابات، وسواء أكانت هذه الأسئلة التي تتضمنها عملية القراءة صريحة أم مضمرة، فالمحصلة في الحالتين واحدة وهي أن طبيعة الأسئلة تحدد للقراءة آلياتها << (12).

ونحن في هذا المقام نشير إلى أن القارئ في تعامله مع البنى النصية ينتهج أسلوب طرح السؤال والبحث عن الجواب، فالسؤال هنا يفضلته ييسط المفاهيم التي تتضمنها الأعمال الأدبية ومن ثم يقدر قيمتها، حيث ينتقل بها من فضاء ضيق إلى فضاء رحب يستوعب المادة المعرفية ومعايير الجمالية فيها، علاوة على التأويلات المتعددة لها والمقدمة للمرايا اللانهائية، فالمنجز للعملية القرائية يهتم بشفرات النص ذات الطابع اللغوي بالدرجة الأولى المتمحورة حول النص وكأننا به ينطلق من الفرضيات التي تجعل من ذلك النص شرعية حضورية يستخدمها بوصفها كيان فعلي يملك الحق في الاشتغال على تقديم تداخلات سلطوية في بنيته، وذلك عن طريق مصاحبة العملية المقارباتية للبنى النصية، والفعل أحوارتي التحليلي والتعليلي لمعطيات ذلك النص البنائية التي تعد بمثابة معين للقارئ في عمله ألتفكيكي والتبعي لشفراته وأنساقه المتباينة .

فهذا كله يسهم مساهمة فعالة في إنتاج الدلالة من النص وفي النص من غير قيود، والإستراتيجية القرائية البديلة هي تلك التي يتم تحديدها من قبل القارئ(المنجز للعملية القرائية) من البنية النصية في حد ذاتها، فهو هنا يتفوق على سلطة النص، وذلك وفق آلية ذهنية تعد مركزا أساسيا في الوصول إلى استكشاف المعاني، وتحويل النص إلى بيان دلالي يبقى في نظرنا مؤجلا لأنه غير ظاهر فهو غائب/مضمّر، و ما القراءة - في نظرنا - إلا تأكيد لذاك الغياب واستحضار له، وذلك قصد تبيينه وإظهاره ومن ثم إفهامه للغير .

فلا غرو إذن إذا ما قلنا: إن العملية القرائية تتميز بإستراتيجية خاصة تجعلها تركز على إمكانات علمية، وآليات إجرائية تمكنها من الارتحال بين البنيات النصية، وتسعى إلى الاشتغال بمرامي الدوال المعممة، حيث نلاحظ بأن شغلها الشاغل هو البحث في كنف الكائن الموجود ( النص الإبداعي/المجسد )، وإبراز علاقاته الداخلية، لتشكيل الكائن المفقود (النص المقروء والمنتج / المحتمل).

ومما يبدو لنا أن هذا العمل نابع من الوعي بأن النص الإبداعي يتميز بخطاطة تصويرية لدواله ومدلولاته ومستوياته المختلفة المساعدة للقارئ على كشف الستار عن إحالاته الدلالية، وهذه المسلمات المشار إليها تدفعنا إلى النظر إلى القراءة بوصفها أداة تمكنا من التعرف على ماورائية ذاك الكائن الموجود التي - في رأينا- لا يمكن أن يستقيم وجودها في ظل حدود مألوفة، فهي تدعو المشتغل عليها إلى تجاوز حدود الظاهر للوصول إلى استكشاف المضمّر، وبمكنا توضيح ذلك على النحو التالي:



وإذا كان الأمر كذلك فكيف نقرأ تراثنا ولمن نقرأه؟ وهذا ما سنتناوله في العنصر الموالي من هذه الورقة البحثية:

### ثالثاً- كيف نقرأ التراث ولمن نقرأه؟:

من الطبيعي أن تكون قراءة النص التراثي ذات أهمية كبرى، فهي تدعو إلى ضرورة التعرف على المادة الخام الغنية بجوانب يحمل الحقول المعرفية، والجامعة من الحاضر جزء لا يتجزأ عن الماضي ولا ينقطع عنه مطلقاً، إنه يقتضي من قارئه استخراج مضمّراته ومكوناته الروحية والفكرية؛ كونه يتضمن شبكة من المعطيات الموقفية والمنظومات المعرفية- الأدبية منها واللغوية- الناتجة عن طاقة تأملية معينة، العاكسة لمحطات فكرية حضارية، والمصورة لرؤيا الواقع، فهي تجعلها تحمل مستويين من الإدراك المعرفي وهما:

➤ إدراك معرفي ذاتي / فردي: يتصل بالذات المشكلة للنص التراثي وفق تصورات معرفية

وفنية محددة تميزها عن غيرها في عملية التفاعل مع الأنشطة الفكرية والإبداعية.

➤ إدراك معرفي ذواتي / جمعي: تبرز في ضوئه شخصية القوم أو الأمة وتحدد

خصوصياتها.

وبناء على هذا التصور يتضح لنا - كما سلف الذكر - أن الأسلاف قد وصلوا إلى أوج حضارتهم بفضل ما خلفوه من مكنونات معرفية كان لها بناء معرفي متماسك، يستلزم وجود ذات قارئة تستبين خباياه، وتستوضح خلفياته الثقافية والسياسية والاجتماعية والدينية والمنطقية... الخ.

وفي ظل هذا المنحى نشير إلى أن التعامل مع النص التراثي سلك مسلكين:

➤ المسلك الأول: يتمثل في التبعية المطلقة له.

➤ المسلك الثاني: يكمن في مقاطعته والبحث عن بديل عنه.

ومن الواضح أن هذين المسلكين يبينان لنا بأن التعامل مع التراث عموما و الأدبي منه على وجه الخصوص يقتضي إعمال العقل في التفاعل معه ، فهو في مرحلته الأولى يكون ذا صبغة تقليدية لما قدمه لنا القدماء ، وعدم الاكتفاء بذلك وإنما يتوجب الانتقال به إلى المرحلة الثانية التي تجعل منه كائنا قابلا للقراءة والاستنطاق والابتعاد عن التبعية الفكرية ، والتحرر من سلطة الماضي ، ومن ثم الضفر بمكانة خاصة وتمييزة في إطار النظام المعرفي والحضاري اللامستقر وما ينبثق عنه من قراءات مستحدثة فعالة تذهب بالنص التراثي إلى إمكانية القراءة وإعادة الإبداع، إنه متحرر مما يعرف بالقطيعه بين الاثنين ( التراث / الإبداع)، و تجسيد الاتصال بينه وبين ما هو مستحدث ( القديم / الحديث)، ( التراث / الحداثة).

فقارئ النص التراثي الأدبي يتفاعل مع كل من القضايا التراثية (الماضي) وفي الوقت ذاته يستجيب لقضايا الحداثة (الحاضر ) مادّا جسور التواصل بين الماضي والحاضر في إطار التداوليات الفكرية وأصول معرفية ، وإجراءات منهجية تحضر في العملية القرائية لكل حقل من الحقول المعرفية.

وإذا ما انطلقنا من الغاية الأساسية من قراءتنا للنص التراثي تستوقفنا الكيفيات الثلاث

في القيام بالعملية القرائية له نوردتها كما يلي :



### ➤ الكيفية الأولى: تتمثل في القراءة الاختيارية/ التمييزية/ التمحيصية: مهمتها الجمع

بين ما يعرف بالأصالة والمعاصرة، القديم و الجديد، الماضي و الحاضر، وهكذا؛ فهذا النمط من القراءة للنص التراثي يشتغل أصحابه على الاستفادة مما هو تراثي وفي الوقت ذاته السعي إلى التفاعل مع ما هو جديد، وتبقى هذه العملية خاضعة لحدث الاختيار والتمييز بين القضايا، فالارتباط ببعض الأمور التراثية يقتضي عدم تجرئها مما شحنت به من دلالات فكرية وثقافية إنما الاعتماد على تقنية معرفية بوصفها آلية إدراك الفكر الإنساني وعامل استيمولوجي يجسد الوصال بين مكون معرفي تراثي ومكون معرفي آخر نضوي، وذلك وفق احترام معالم الواقع الثقافي والحضاري؛ فالعمل النهضوي >> لا يمكن أن يكون قائماً على ما ينتجه الغير بل يجب أن يأخذ ما هو إيجابي في تراثنا القديم، والعمل على بعثه من جديد حتى يواكب العصر << (13)، والإنسان المنتقص من قيمة ماضيه لا يمكن أن يبني حاضره ولا أن يستشرف مستقبله .

ومما يتجلى لنا أن الدلالة التي يحتويها هذا النص تتجاوز مع قولنا بأن العمل التجديدي للفكر يستلزم على القائم عليه أن يعود إلى المخزون التراثي ويتأمل صرحه الكياني الدلالي ليمحصه ويختار منه ما يراه مناسباً لعصره ، مميزاً بين ما هو إيجابي في قضيتته المدروسة وكذا لذاك العصر، وما هو سلبي قد يستفاد منه فيما سيأتي من الحركة الدراسية التجديدية للتراث، ومن ثم يكون فعل الاختيار والتمييز هنا بمثابة مصنف للنص التراثي إلى صنفين: صنف يأخذ مكانه في سلسلة الدراسات التجديدية المعاصرة ، وصنف ينتظر لحظة استحيائه فيما سيأتي من تلك الدراسات .

### ➤ الكيفية الثانية: تتمثل في القراءة التحويلية/ البنائية/ التشكيلية: مهمتها الانتقال

من قراءة النص (التراث) قراءة ذات صبغة تراثية إلى قراءة استحدائية، تخرج به من كنف التقليد والمحاكاة لتصير إلى التحول والبناء بواسطة الاستناد إلى حدث الإبداع والتجديد، وذلك عن طريق السعي نحو >> إعادة بناء التراث لإعطاء العصر دفعة جديدة نحو التقدم << (14)، بحيث يظهر لنا بأن التطور الثقافي والفكري يستوجب إزاحة الحواجز بين القديم والجديد، التراث والحداثة

...الخ، كما يتطلب فك أغلال الانغلاق على الذات والانفتاح على الآخر، إنه يقتضي العود إلى التراث وإعادة إحيائه وبنائه لوضعه على المسار التقدمي، فالهدف منه ليس فهم العصر بقدر ما هو تطوير لهذا العصر، ويقيم منطلق هذا النوع من القراءة الاهتمام بخصوصية الحاضر، وما له من اعتبارات فكرية وثقافية وسياسية واقتصادية ... و ما إلى ذلك، دون التقيد بالماضي أو ما يخلفه من حقائق؛ كون الماضي كما نعلم جزء لا يتجزأ من التراث.

➤ **الكيفية الثالثة: تبدى في القراءة الاستبصارية/الاضائية:** تتضح لنا معالمها من خلال تبيين القارئ للمستويات الخطابية وعلاقتها بالقاعدة الثقافية المميزة للفكر العربي من جهة، والتطور الحاصل في مولدات الذهنية العربية من جهة أخرى، هذا التطور الذي صار يدرك حقيقة الأمر المستحدث ويمنحه معنى خاصا، و يجعله عاملا هاما في التطور الحضاري، ومركزا أساسيا في بناء مقارباته الفكرية التطويرية، إذ يبرز فيه استكشاف الأنظمة المعرفية التنويرية المبينة >>لقوى العقل الإنساني وفكرة التقدم الاجتماعي << (15).

وتكتسب هذه القراءة مشروعية وجودها من حدود زمنيها الثقافية المتحررة من خصوصية التحديد التوقيتي الطبيعي والخاضعة لآليات إنتاج المعرفة الناجمة عن تكوين العقل العربي وما له من أنظمة معرفية تتشكل وفقه بنية هذا العقل من حيث >>ما تنطوي عليه هذه البنية من أنظمة عرفية، أو أنساق المفاهيم والمبادئ والإجراءات التي تعطي لمعرفة هذا العقل بنيته اللاشعورية << (16)، المنيرة لجانب من جوانب الحياة الفكرية للمجتمع ومن ثم الحياة المجتمعية برمتها، فالتراث العربي أنتجه عقل عربي يتميز ببنية ثقافية معرفية خاصة تميز المجتمع العربي من جهة، وقابلة للاستجابة لمقتضيات العصر من جهة أخرى، ومن هنا نتساءل: كيف يتم إحياء التراث العربي وفق الدرس الحديث؟ هذا ما سنتناوله في العنصر الموالي.

#### رابعا: القراءة الإحيائية للتراث وفق الدرس الحديث:

إن قراءة التراث ليست بعثا لميت كما ذكرنا آنفا، فهو في رأينا مشروع فكري يتميز بالتعدد المعرفي -عبر الامتداد الزمني - الذي يتعذر الإحاطة بجميع جوانبه، فالقارئ الحدائثي إذا ما أراد أن ينطلق من خصوصيات الدرس الحديث القائم على النقد والفهم والإفهام يجد نفسه

أمام إشكالات متباينة منها ما هو متصل بطبيعة العلاقة الماثلة بين الذات والإبداع، وكذا مساءلة القيم الجديدة للعملية الإبداعية القرائية وتحديد علاقاتها بالنص التراثي، والاستفادة من أشكاله كافة، مع إعادة تشكيكه في ضوء معطيات جمالية، وأسلوبية ودلالية... الخ.

وكان من الطبيعي أن يقودنا كل ما سبق إلى القول بأن التراث الأدبي يعد ماضيا فكريا يحيا في الحاضر، ولذلك يستلزم قراءته قراءة حدثية ترمز إلى التطوير والارتقاء لا الرفض لما كان ( التراث / الماضي )، كون المنتج التراثي - بطبيعة الحال - غير زمكاني، إنه متحرر من ثنائية الزمان والمكان، بحيث >> فما كان محدثا في شعر الجاهلية - على سبيل المثال - ما زال فاعلا، وله الأثر الحدائي نفسه إلى الآن << (17).

ومن ثم يصير التراث في اعتقادنا حاملا لرؤية فكرية، ومركزا مرجعيا لا نهائي للدلالة، فحيويته وفاعليته يمكنها أن تشكل له روحه الحدائية في زمننا الراهن، والتعامل معه لا يعني انغلاق القارئ على الماضي، أو الذوبان والانصهار في كيان الآخر (الغرب)، وإنما يقتضي من قارئه مراعاة التوازن المنهجي بين ما هو تراثي وما هو حدثي وبخاصة إذا تم التسليم بأنه >> لا يمكن أن توجد علاقة صحية بالحاضر في غيبة سوية بالماضي << (18)، فالدرس الحديث للتراث الأدبي و اللغوي يسعى أصحابه إلى العدول عن المؤلف، وكسر أغلال الجمود والنمطية ومناشدة اللانهايي واللامحدود، ومحاولة تشكيل بناء فكري خاص وحديد لا يتم فيه إلغاء البنية السابقة، وفتح أفق مستحدثة لقراءته تتناول مستويات عديدة منها المستوى الأسلوبي والسميائي، التفكيكي والتوليدي... وما إلى ذلك من مستويات القراءة.

ومما يبدو لنا أن عملية استحضار مكونات التراث تقتضي إعادة النظر في المعايير المستخدمة، وتجاوز حدود الماكان، وتحرير للملكة الذهنية القارئة، مع ضرورة عدم الانفصال بين الراهن والمنقضي، وكذا الاستجابة للحركات التحديثية، والتحويلات الفكرية، وما لها من أنساق معرفية تلح على اكتشاف "الأنا/ الذات" وما لها من حضور فيما تترجمه من انعكاسات على علاقتها بالواقع من جهة وبالأخر من جهة أخرى، ومن ثم تكون العملية القرائية للنص التراثي وفق منظور حدثي ينتج معرفة جديدة للتراث المقروء، ونوضح هذا من خلال الجدول التالي:

التراث و الأزمنة	خصوصية الأزمنة
الماضي	<ul style="list-style-type: none"> <li>✗ الذاكرة</li> <li>✗ الأصالة</li> <li>✗ الهوية...</li> </ul>
الحاضر	<ul style="list-style-type: none"> <li>✗ الماضي حي في الحاضر</li> <li>✗ الواقع الحاضر</li> <li>✗ إشكال معرفي</li> </ul>
المستقبل	<ul style="list-style-type: none"> <li>✗ قراءة المكان</li> <li>✗ جدل الأنا مع ماضيها وحاضرها ومستقبلها</li> <li>✗ جدل الأنا مع الآخر المتداخل مع ماضيها وحاضرها ومستقبلها</li> </ul>
الأزمنة	خصوصية الحدث القرائي للنص التراثي (الأدبي) وفق الدرس الحديث
الماضي	<ul style="list-style-type: none"> <li>✗ مقروء ثابت قبل القراءة</li> <li>✗ استقرار نسبي في الدلالة</li> <li>✗ فهم مباشر و غير مباشر يقتضيه السياق وقرائن اللغة</li> </ul>
الحاضر	<ul style="list-style-type: none"> <li>✗ وجود فعلي يتحقق عبر القراءة</li> <li>✗ وجود يتجسد خارج الذات الإنسانية</li> <li>✗ تفاعل بين العلاقات المتشابكة والمعقدة والمتداخلة</li> </ul>
المستقبل	<ul style="list-style-type: none"> <li>✗ الذات فاعلة إزاء موضوعها</li> <li>✗ تفاعل الذات مع النص المقروء في ضوء النظريات النقدية المعاصرة</li> <li>✗ قراءة إحيائية تجعل من الأصول غاية مقصودة لذاتها</li> </ul>

و يمثل هذا الفهم إشارة إلى أن العملية القرائية للنص التراثي الأدبي تتركب من :

- ✓ قارئ النص التراثي = وما له من فاعلية استكشافية
- ✓ النص التراثي القرائي = انفعالية النص وتجسيد العلاقة الانجذابية بينه وبين قارئه
- ✓ ناتج الحدث القرائي للنص التراثي = ظهور دلالات مستحدثة ترتبط بخصوصية

القارئ ورؤيته

وقد توحى هذه الأبعاد بكيفية قراءة البنية النصية التراثية المتمحورة حول الآليات

القرائية التالية:

➤ الآلية القرائية الماضوية/ المحاكاتية: التي يرتد فيها >> الناقد التقليدي إلى الماضي وإلى التراث على وجه الخصوص لإرساء تصوراته الفكرية وقيمه الاجتماعية <<<sup>(19)</sup>، بحيث يكون هذا الناقد منطلقاً من الماضي ليدرك الحاضر وما ينتج من بناءات دلالية تكون مرتبطة في الدرجة الأولى بالبنية السطحية للنص التراثي، ومن ثم تكون دلالاتها أولية.

➤ الآلية القرائية الحداثية: تجعل >> الحاضر امتداداً للماضي <<<sup>(20)</sup>، إذ ينطلق القارئ من الحاضر لإعادة بناء الماضي، فهو يكون على دراية بالدراسات المتطورة، وحيثيات المناهج النقدية المعاصرة، وذلك حتى يخضعه للقراءة التحليلية التأويلية التي تغير سياقاته التاريخية والاجتماعية التي كان يتضمنها .

➤ الآلية القرائية التوفيقية: التي تجمع بين الآيتين السابقتين؛ إذ يعتبر أصحابه >>الماضي أصلاً لا يمكن الخروج عليه ويسعون إلى أحكام الحاضر في ضوءه <<<sup>(21)</sup>، بحيث يتم الربط فيها بين الوحدات المنهجية المعرفية البنائية والوحدات العلائقية للنص المقروء.

خاتمة : يمكن الخروج من هذه الدراسة بجمللة من النتائج لعل أهمها:

- النص التراثي كان و لازال في حاجة ماسة إلى قراءة و إعادة القراءة قصد كشف الستار عنه والوقوف عند خباياه كونه يعد مشروعاً مفتوحاً على كل الأصعدة.
- النص التراثي كائن متحرك خاضع للتشكيل و إعادة التشكيل بفضل العملية القرائية .
- إنه ممارسة إبداعية فكرية تحتاج إلى إجراءات معرفية منهجية تعين على تقديم الرؤية القرائية التأويلية دون إغفال للماضي أو قفز عن الحاضر .
- قراءة التراث إما اختيارية / تمييزية ، أو تحويلية / بنائية ، أو استبصارية / إضائية ( تنويرية) لا تخرج كلها عن حمى البنية الثقافية المعرفية للمجتمعات و القابلة للاستجابة لمقتضيات العصر .

- قراءته تكون قراءة حدائية ترمز إلى التطوير والارتقاء لا الرفض لما كان ( التراث / الماضي) و ذلك وفق آليات قرائية تأخذ بعين الاعتبار.

### الهوامش

1. شرف الدين ماجدولين :حكايات صور(تأملات نقدية ) منشورات الاختلاف ،الجزائر ،الدار العربية للعلوم ناشرون ، بيروت لبنان، ط 1،1430،هـ،2009م.
2. كريم الوائلي :المواقف النقدية بين الذات والموضوع (دراسة لنقد القصة القصيرة ،العراق) العربي للنشر والتوزيع ،القاهرة، د ط ، 1986م.
3. زبادة محمد لخضر : من أعلام النقد العربي الحديث والمعاصر ( دراسة في المنهج) ،سلسلة كتب في الحقول المعرفية والنقدية ،دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، جمهورية مصر العربية، ط 1، 2007م.
4. زكي نجيب محمود: المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري ،دار الشروق للطبع والنشر والتوزيع ،القاهرة، جمهورية مصر العربية،دط
5. حسن حنفي : التراث والتجديد ،القاهرة، جمهورية مصر العربية ، د ط ، 1980 م .
6. صلاح فضل :إنتاج الدلالة الأدبية، مركز الحضارة العربية ،القاهرة ،ط2،2002م،ص:123،وينظر أيضا: محمد بدوي: قضية الحدائيات ومسائل أخرى في النقد الأدبي، دار شرقيات للنشر والتوزيع ،القاهرة، ط 1 ، 1999م ، ص: 14.
7. محمود أمين العالم: الوعي الزائف ، القاهرة، جمهورية مصر العربية ، د ط ، 1977م ، ص: 222.
8. حسن حنفي : التراث والتجديد ، ص: 11
9. شكري المبخوت: جمالية الألفه( النص ومقبله في التراث النقدي) ،المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون ،بييت الحكمة،تونس، ط1،1993م،ص:13.
10. حسين الواد: من قراءة النشأة إلى قراءة التقبل ،ندوة القراءة والكتابة، نشر جامعة تونس ،د ط ، 1988م.
11. حمادي صمود: قراءة نص شعري من ديوان "أغاني مهييار الدمشقي" لأدونيس ،ندوة صناعة المعنى وتأويل النص.

12. نصر حامد أبو زيد: إشكاليات القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي للنشر، بيروت، لبنان، ط 2، أيلول 1992م.
13. حبيبة طاهر مسعودي: قراءة جديدة للمصطلح في التراث النقدي العربي من العصر الجاهلي إلى القرن الثالث الهجري، مكتبة وهبة للنشر والتوزيع، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ط 1، 1429 هـ - 2008م.
14. حسن حنفي: من العقيدة إلى الثورة، القاهرة، جمهورية مصر العربية، د ط، 1988م.
15. إبراهيم فتحي: معجم المصطلحات الأدبية، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، التعاضدية العمالية للطباعة والنشر، صفاقس، الجمهورية التونسية، ط 1، 1986م.
16. محمد عابد الجابري: تكوين العقل العربي، بيروت، لبنان، د ط، 1984م.
17. مروة متولي: حداثة النص الأدبي المستند إلى التراث العربي (دراسة لفنيات الموروث الثري وجماليات السرد المعاصر في أدب جمال الغيطاني 1969. 2005 م)، دار الأوائل للنشر والتوزيع والخدمات الطباعة، سورية، دمشق، ط 1، تموز 2008م، ص: 29.
18. جابر عصفور: استعادة الماضي: مكتبة الأسرة للنشر والتوزيع، القاهرة، جمهورية مصر العربية، د ط، 2001م
19. كريم الوائلي: المواقف النقدية بين الذات والموضوع دراسة لنقد القصة القصيرة العراق، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، جمهورية مصر العربية، د ط، 1986م
20. المرجع نفسه، ص: 20.
21. المرجع نفسه، ص: 21.